ـ الهويَّة الثّقافيَّة الجزائريَّة وأثر تعدُّد المرجعيَّات .

ـ أ . نجيب ربيعي
(جامعة العربي تبسي ـ تبسَّة)

ملخص البحث بالعربية :

تتمحور هذه المداخلة حول مسألة الهوية الثقافية على مستوي مرتكزاتها بين الثابت و المتغير وضمن هذا السياق نحاول الوقوف على مظاهر تعدد المرجعيات التي تشكّلت عبرها .وبيان المتغير الذي قد طرأ عليها نتيجة أثر معطيات الراهن.

ومن خلال المسائلة و المكاشفة الموضوعية نسعى الى مقاربة خطابها لنستجلي واقعها في ظل التنوع و التعدد الذي تتغذى منه ومن ثم الوقوف على تداعيات هذا التعدد و التنوع وإلى أي مدى يمكن اعتباره علامة صحّة أو اعتلال للهوّية الثقافية الجزائرية ' كون المرجعيات هي التي تحدد الهوية وتحافظ عليها في نفس الوقت .

الكلمات المفتاحية : الهوّية ، الثّقافة ، المرجعيات ، المذاهب ، الذوبان في الآخر.

Résumé en français

Cette présentation se concentre sur la question de l'identité culturelle au niveau de Mrtkzadtha entre fixe et variable et، dans ce contexte، nous essayons de tenir sur les manifestations de la multiplicité des autorités، qui a été formé par la variable .obian qui a subi comme il est parfois influencée par l'autre. Grâce à la reddition de comptes et l'objectivité de la communication que nous essayons de l'approcher pour Nstgele réalité dans la diversité et le multiculturalisme، qu'ils le nourrissent et se tenir debout sur les implications de cette pluralité et la diversité et dans quelle mesure peut être considérée comme la mauvaise santé ou de l'identité culturelle du drapeau algérien. Le fait que les autorités sont déterminés par l'identité et la maintiennent en même temps

توطئة :

إنّ من أهم القضايا الراهنة والحسّاسة مسألة الهوّية الثّقافية للمجتمع الجزائري هذا الموضوع الذي يفرض تكاتف الجهود مدارسة و ممارسة من قبل الجميع لوضع الأطر السليمة و الصحّية التي تحفظ هذه الهوّية و تكون بمثابة صمّام أمان يقي الثقافة و المجتمع من الشروخ و التصدعات التي تفتّت كيانه ووحدته.وضمن هذا السياق يأتي هذا المقال كمساهمة متواضعة لإضاءة بعض جوانب و محّددات الهوّية الثّقافية وأثر تعدد المرجعيات التي تصدر عنها هذه الهوّية.

إن ما يجعل من مسألة الهوية الثقافية بؤرة إشكالية هو كونها بناء يتشكل بفعل محددات متعددة و مختلفة فهي ليست نتاجا لمرجعية واحدة ثابتة ، بل هي مركب متعدد العناصر يتميز بالمرونة و التحول و التجدد المستمر تبعا لتحولات الفكر و الواقع و الإنسان .إن العالم يتبدل بين لحظة وأخرى بفعل الصراعات الدائمة أو بغاية الثورة الأنماط السائدة في التفكير و السلوك للأفراد و الجماعات ،فتنشأ عادات جديدة و تزول أخرى و تبدع الجماعات أنماطا جديد في الآداب و المعاملات ، كما تتغير عقائد الناس و تصوراتهم

يبدوا أّنه لا شئ يبقى ثابتا بالقياس إلى طبيعة هذا العصروهذا إنما يعني أن الثقافة – كمركب من كل هذه العناصر و غيرها-لا تعرف الثبات بل هي في صيرورة و تحول دائمين مما يجعل الهوية الثقافية هي الأخرى متحولة و غير ثابتة،لكن هذا التحول قد يشكل خطرا جسيما يهدد كيانها إذا لم يكن تحولا مرنا يتسم بالوعي الكامل بحيث يأخذ في الحسبان ضرورة التمييز بين الثابت و المتغير،إذ على الرغم من وجود تغيرات في كثير من مظاهر ثقافة المجتمع إلا أن ثمة ثوابت في هوية الثقافة الجزائرية ليست محل مساومة أو تبديل لأنها نخاع هوية الأمة بأسرها كالدين مثلا و اللغة.

وغني عن البيان أن الثقافة الجزائرية ثقافة تتميز بتنوع جيني لملامح و صفات ذات أسس مختلفة و متنوعة ترتبط بأطياف وألوان الثقافات في المجتمع الجزائري ،وهذه الثقافات هي نتاج طبيعي لمسيرة و سيرورة تاريخية طويلة ذات بعد ماضوي تحيل على مختلف الثقافات و الحضارات التي تعاقبت على هذه البلاد منذ فجر تاريخ الوجود البشري على هذه الأرض.

من رومان و بيزنطيين و فاتحين وغيرهم، وهذه الثقافات تركت –بلا شك- بعض بصماتها في الفكر و السلوك و ترسبت بفعل الزمن في كيان شخصية هذا المجتمع.هذا علاوة على وجود مزيج اجتماعي لقبائل عديدة تتمايز في كثير من المظاهر الثقافية فهناك القبائل العربية و البربرية و ما يتفرع عن هذه الأخيرة من شاوية و غيرها و قبائل التوارق و بني مزاب.. إن هذا التعدد قد أفرز بدوره تعددا في كثير من ألوان السلوك الاجتماعي فهذه القبائل تتباين في كثير من ظاهرها الثقافية ، وفي هذا السياق تأتي مقاربتنا لمسألة الهوية الثقافية في المجتمع الجزائري على مستوى أثر تعدد مشاربها و مرجعياتها ، ولذلك فقد ضمنا طرحنا بعض الإشكاليات نسعى إلى الاقتراب من الإجابة عليها نوردها كما يأتي:

- ماهي أهم محددات و مرتكزات الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري؟
- هل تعدد المرجعيات لهذه الهوية علامة صحة أم اعتلال فيها؟
- إلى أي مدى تشكل العولمة –كمرجعية قسرية - خطرا يهدد كيان هذه الهوية ؟

I. الهوية الثقافية والمرجعية قراءة في الدلالات و المفاهيم :

يعد مفهوم الهوية من المفاهيم حديثة العهد و الذيوع و الاستعمال و لأجل ذلك فقد واجه الباحثون صعوبة في تحديد هذه الماهية التي لا تعرف الاستقرار فالهوية مفهوم متطور مرتبط بتحولات الفكر و العصر.و لعل إشكالية علاقة الذات بالآخر أو الشرق بالغرب مثلت

مناخا مناسبا لبروز هذا المفهوم على السطح وسرعة رواجه و توسع انتشاره'لكن على الرغم من ذلك سنحاول الاقتراب من هذه الماهية بتقديم ما ورد من تعاريف لها.

1) ماهية الهوية :

أ) **لغة :**

يرجع مفهوم الهوية إلى" الجذر الاشتقاقي لكلمة هوية من الضمير "هو" ، فقد تم وضعه كاسم معرف بأل و معناه " الاتحاد بالذات"، و يشير مفهوم الهوية إلى ما يكون به الشيء هو هو أي من حيث تشخصه و تحققه في ذاته و عن غيره..."[1]والهوية مأخوذة من " هو " بمعنى جوهر الشيء وحقيقته ..إنها كالبصمة للإنسان يتميز بها عن غيره. وتُعرّفُ الهوية أيضا بمعنى " التفرّد " ، فالهوية .. تعني التفرّد الثقافي بكل ما يتضمنه معنى الثقافة من عادات وأنماط سلوكٍ، وميلٍ، وقيمٍ، ونظرةٍ إلى الكون والحياة" [2] .

فالهوية بهذا المعنى تحيل على كونها مجموعة الخصائص النفسية و الاجتماعية التي تميز ذات الفرد ،كما تشير إلى معنى الأنا في مقابل الآخر.، لأن الهوية تتشكل أساساً بتعريف "الأنا" في مرآة التضاد مع "الآخر"، فإنه لا يمكن فهم تطور صياغة الهوية من دون الانخراط في فهم علاقتها مع الآخر.وفي ذات السياق يميز "ميد" بين أنا كضمير و أنا كذاتي ،فالأولى هي استجابة و رد فعل الفرد بالنسبة لاتجاهات الآخرين، أما أنا كذاتي فهي تنظيم مجموعة من اتجاهات الآخرين التي تشكل بناء الذات"[3]

ب) **اصطلاحا :**

فقد شغل هذا المصطلح حّيزا كبيرا من اهتمام علماء الاجتماع وعلماء النفس و الأنثروبولوجيين فاجتهدوا في تقديم عديد التعاريف لهذا المصطلح أهمها أنها تحيل على كونها"حصيلة لمجموعة من أنساق العلاقات و الدلالات التي يستقي منها الفرد معنى لقيمته، ويضع لنفسه في ضوئها نظاما يشكل في إطاره هويته بحيث تتوفر له من جراء ذلك إمكانية تحديد ذاته داخل الوسط السوسيوثقافي باعتباره نظاما مرجعيا على المستوى السلوكي"[4].
من خلال هذا المفهوم تبدوا الهوية بناء يتشكل بفعل جملة من المعطيات الاجتماعية و الثقافية التي يمتلكها المجتمع الذي ينتمي إليه أفراده ، بمعنى أنها تكتسب عبر التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الأفراد .

إن هذا المفهوم يكشف عن علاقة واضحة بين الهوية و ثقافة المجتمع ، **وهي بهذا المعنى نسق من الموروثات الحضارية و من الأسئلة و الأجوبة المتعلقة بالكون و السلوك الإنساني من المعايير الأخلاقية ومن العقائد الدينية و هي كذلك ما يعبر عن ذلك و يرتبط به من أعراف وعادات و تقاليد و هي كذلك مجموع التراث الثقافي و الحضاري الذي ترثه جماعة ما عن ماضيها أو يساهم في تشكيل كيانها** ،أي أن الهوية الثقافية هي بنت شرعية للأطر الاجتماعية الثقافية التي أسهمت في تشكلها ،يقول الجابري في الهوية أنها:" كيان يصير، يتطور، وليست معطى جاهزا ونهائيا. وهي تصير وتتطور، إما في اتجاه الانكماش وإما في اتجاه الانتشار، وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم، بانتصاراتهم وتطلعاتهم،

وأيضا باحتكاكها سلبا وإيجابا مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما "[5]**.فالهوية هي الوعي بالذات الاجتماعية و الثقافية، وهي ليست ثابتة و إنما تتحول تبعا لتحول الواقع، بل أكثر من ذلك هناك داخل كل هوية هويات متعددة ذوات جوانب مختلفة فهي ليست معطى قبلي، صنع من قبل الإنسان وفق مقتضيات التحول** ، ومن وجهة نظر اجتماعية فالهوية ليست معطى ثابتا، حيث أن التغير يظل لصيقا بها نتيجة لما يتعرض له أفراد المجتمع من تأثيرات خارجية تعمل على تغيير "هوياتهم" وإعادة إنتاجها من جديد تبعا للمستجدات في الفكر و الثقافة و بفعل التأثير الذي تمارسه بعض تلك المؤثرات.

وعلى الرغم من أثر مختلف العوامل في تشكيل الهوية الثقافية إلا انه لابد أن تصدر الهوية عن حرية في اختيارها ،فلا تكون مفروضة من أية جهة خارجية كالاستعمار بكل أشكاله ،كما يجب أن تعبر عن قناعات الأفراد . فالحرية شرط هام في بناء الهوية الثقافية ، وكلما كانت نابعة عن إيمان بالمبادئ التي تبناها الأفراد كلما امتلكت صفة الاستمرارية ووضعت صمام أمان لحمايتها.

إن النبش في بنية الثقافة الجزائرية يسهل مسعانا في الولوج الى خلفيات الهوية الثقافية الجزائرية، وقبل استعراض معالم مرجعيات هذه الهوية نأتي على تحديد مفهوم المرجعية قبلا.

2) **ماهية المرجعية :**

أ) **لغة:**

نجد جذر المرجعية اللغوي يعود إلى الفعل الثلاثي (رجع)، والمرجعية مصدر صناعي من مرجع على وزن (مفعل) واشتقّ منه الفعل الثلاثي رَجَعَ كما وجد في لسان العرب: "رجع يرجع رجوعا ورجعيّ ومرجعيّ، انصرف الاسم مرجعا. والرجيع من الكلام المردود إلى صاحبه أو المكرّر"[6].

ب) اصطلاحا :

يقول الدكتور "محمد أمهاوش عكف" أن نفهم المرجعية من زاوية لسانية وسيميائية باعتبارها علاقة بين العلامة وما تشير إليه، والوظيفة المرجعية للغة هي الوظيفة التي تحيل على ما نتكلم وعلى موضوعات خارجية من اللغة، والوظيفة المرجعية في اللسانيات هي المرجعية المؤدية إلى الإخبار باعتبار أن اللغة فيها تحيلها على أشياء وموجودات تتحدث عنها، وتقوم اللغة بوظيفة الرمز إلى تلك الموجودات والأحداث المبلغة.

ويعرفها الدكتور "رياض عثمان" أن المرجع هو المعنى الثابت القائم على التطور المفهومي للمصطلح الفني ضمن خصائص وسمات علائمية بين مدلولين، الأول لغوي والآخر مفهومي يشكلان وجه العلاقة بين الراجع والراجع إليه هو المفهوم المقرون بالحد الذهني والعقلي الذي أطلق فيه المصطلح ولأجله"[7].

II. الهوية الثقافية و تفاعل المرجعيات:

تمثل إشكالية الهوية في الجزائر من كبرى المشكلات التي تسم مشهدنا الثقافي و تميز الخطاب الثقافي لمثقفينا بشكل عام ، و غني عن البيان أن هذا الواقع المأزوم الذي تتخبط فيه هويتنا الثقافية يرتد إلى عدة محددات مختلفة يرتبط بعضها بالمرجعيات المتعددة التي صدرت الثقافة الجزائرية في حد ذاتها و من ثم امتداد تلك المرجعيات في الفكر و السلوك لدى الجزائريين أفرادا و جماعات. كما يتصل بعضها بنوعية الثقافة التي يحملها الفرد الجزائري و التي تعكسها مواقفهم من الفكر والحياة و الإنسان.إن الثقافة الجزائرية هي نتاج لمسيرة طويلة عبر التاريخ الطويل الذي عاشه المجتمع الجزائري فلقد توالت ثقافات و حضارات عديدة على هذه الأرض منذ فجر التاريخ " فالتراكم التاريخي ضروري لصنع الهوية الثقافية لأنها في النهاية هي المستوى الناضج الذي بلغته المجموعات البشرية نتيجة تفاعل قرون طويلة بين أفرادها و بين الظروف الطبيعية و التاريخية التي مرت بها، والتي نسجت فيما بينها روابط مادية و روحية مشتركة..."[8].

ومما لاشك فيه أن لكل ثقافة حمولاتها الفكرية و الاجتماعية و العقائدية، هذه الحمولات ذات تأثير جلي في فكر الأفراد المنتمين إليها وفي سلوكهم، و عليه و عبر الوراثة الاجتماعية تنتقل هذه الحمولات و المفاهيم إلى المجتمع لتصبح هذه الموروثات قدرات كامنة لكنها فاعلة في تشكيل مظاهر الحياة الاجتماعية و الثقافية وتكون بذلك ملمحا من ملامح الهوية نفسها.إذا فالهوية الثقافية الجزائرية هوية تمتد في عمق التاريخ تاريخ هذا و ثقافته،و عبر عديد التحولات تشكلت معالمها مما يعني أنها لم تنهل من معين واحد بل من تنوع كبير فرضته المعطيات التاريخية و الحضارية لهذه الأمة.

غير أن هذا التنوع و التعدد لم يكن عبر التاريخ عائقا أما الوحدة و الثبات و الانسجام الذي نجده بين عناصر و فئات المجتمع الثقافية،أي انه كان إيجابيا و مرنا إلى حد كبير في صياغة الهوية الثقافية للمجتمع" إن هذا الموروث يشكل عالمًا رحبًا من الذاكرة الجزائرية، والذاكرة العربية لكونه يتكوّن من عالم متشابك من الموروث الحضاري، والبقايا السلوكية، والقولية التي بقيت عبْر التاريخ،وعبْر الانتقال من بيئة إلى أخرى، ومن مكانٍ إلى آخر..وهي سلوكاتٌ، وأقوالٌ راسخةٌ إلى يوم الناس هذا في العقل والضمير"[9]. لقد مرت الجزائر بعدة أطوار حضارية إما بفعل الاستعمار أو الهجرات فقد ترك الرومان في ثقافة هذا الشعب آثارا بينة على مستوى بعض الأفكار و العادات و التقاليد ، والأمر نفسه للبيزنطيين وغيرهم ممن تعاقب على هذه البلاد.ضف إلى ذلك أنه لا يمكن إغفال التنوع العرقي في المجتمع الجزائري بين العربي و البربري و التركي – وان كانت فئة قليلة- فبوجه من الموضوعية لابد أن نعترف بتأثير كل هذه العناصر في شخصية الفرد الجزائري و في هويته الثقافية في بعديها الفردي و الاجتماعي.و حري في هذا السياق أن نأتي ضمن هذه المقاربة لمسألة الهوية على ذكر و استعراض بعض الخلفيات التي تتكئ عليها هويتنا الثقافية في البناء و التشكل.

1) اللغة ،الهوية ،الاستعمار:

يعد الدين الإسلامي و اللغة العربية من أهم مقومات الهوية الثقافية الجزائرية إضافة إلى الأصل الامازيغي و على الرغم من أن هذه الثوابت هي محل إجماع لدى أغلب الفئات الاجتماعية و أطياف المجتمع المختلفة إلا أن هناك صراعا خفيا يطفوا أحيانا على السطح تبعا للظروف التي تحركه ،يتمثل هذا الصراع في تيارين أحدهما يمجد الأصل الأمازيغي للثقافة الجزائرية ويتخذ موقفا من الأصل العربي و الآخر يقف على طرفي نقيض منه،غير أن التيار الأول هو الأكثر حّدة ' و لعل هذا الصراع هو ما يؤرق الثقافة و الهوية الاجتماعية ' لكنه –كما نعتقد – ظرفي لايملك المبررات الموصوعية الكافية. أما عن اللغة كمرتكز لبناء الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري فانه يمكن القول إن اللّغة هي روح الأمّة و ذاكرتها فهي التي تحمل في نسقها فكر الأمة عبر التاريخ و بواسطتها تنتقل التجارب الإنسانية على اختلافها و تنوعها، وقديما عرفها الجرجاني بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم و هذا التعريف يشير إلى الطبيعة الاجتماعية للغة ، فمن خلالها تتكشف معالم التفكير الفردي و الجماعي،كما تنعكس عبرها الرؤى و المفاهيم و المعتقدات و المواقف.و لعل تركيز الاستعمار الفرنسي على السعي لطمس اللغة العربية إنما يعني إدراكه للعلاقة العضوية بين اللغة و الهوية و بالشخصية الفردية و الجماعية و تبعا لذلك تمثل اللغة أساسا متينا تنبني عليه الهوية ،هذا فضلا عن كونها لغة القران الكريم وترجمانه فهي ذات بعد ديني ليكون القضاء على اللغة هو مساس بالقيم الدينية في حد ذاتها'لقد استعمل الاحتلال الفرنسي كل الوسائل المادية و المعنوية من أجل هدم كيان الهوية الثقافية الجزائرية،كما عمل حتى بعد عهد الاستعمار على إبقاء وجوده في نسق ثقافة جسد الأمة" فالمؤسسات الاستعمارية الإدارية التي أنشأت لإدارة تلك الدول ظّلت على أشكالها الأساسية بعد الإستعمار و مغادرة الإدارة الكولونيالية و إحلال إدارة وطنية محلها"(10). ومن مظاهر السياسة الاستعمارية في محاربة اللغة العربية التعامل الإداري باللغة الفرنسية و إصدار قانون يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية و القضاء على مراكز التعليم و الثقافة العربية كالمساجد و الزوايا و الكتاتيب ،فضلا عن فرنسة المحيط عن طريق كتابة أسماء الشوارع و المدن و القرى باللغة الفرنسية ،يقول ابن باديس " إن مشكلة العروبة في الجزائر أساسها وسببها الاستعمار الفرنسي.....فالاستعمار- منذ إن احتل الجزائر- عمل على محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام ..."[11].

إن الحرب التي شنها الاستعمار على اللغة العربية تكشف عن حقيقة هامة هو أن طمس اللغة هو طمس للهوية الثقافية للمجتمع الجزائري و ذلك لحساب صناعة هوية جديدة غربية في كل مظاهرها فضلا عن جوهرها .إن فرنسة اللسان العربي الجزائري يعني تشويه الفكر و العقيدة و تغريب المجتمع و تشتيت كيانه،و بهدم اللغة تنهدم الثوابت وتخلفها القيم المادية التي تحملها الثقافة الغربية. و يترتب على كل هذا أن إهمال اللغة من قبل الأمة بكل أجهزتها هو تهديد يسرع وتيرة تلاشي الهوية الثقافية للأمة،يقول ساطع الحصري" الأمة التي فقدت لغتها فقدت وجودها و أصبحت في عداد الأموات.."[12].وإذا تأملنا واقع اللغة في

الجزائر سنقف على حال يؤسف له فالتداخل اللغوي مثلا كظاهرة استفحلت في كيان المجتمع وأورثته علا في التواصل الحي ، و النزوع إلى استعمال اللغة الأجنبية أصبح عاملا للشعور بتجاوز الدونية و كأن اللغة العربية أصبحت دليلا على الشعور بالنقص؟،ليس من شك إن الاستعمار الفرنسي قد نجح بنسبة ما في مشروعه القذر في طمس الهوية.

الركيزة الثانية للهوية الثقافية الجزائرية ترتبط بالعقيدة الدينية التي يعتنقها المجتمع الجزائري ممثلة في الإسلام الحنيف ولحسن الحظ أن الدين الإسلامي هو دين الدولة لا تنافسه عقائد أخرى في الهيمنة على مظاهر الحياة الاجتماعية، وهذا يعد عاملا ايجابيا في تحقيق هوية موحدة المجتمع،ولذلك لم يسلم الدين الإسلامي من هجمات الاستعمار الرامية إلى اقتلاعه من النفوس و من العقول. ومن أهم مظاهر السلوك الاستعماري الذي مورس حيال الإسلام نذكر سياسة التنصير من خلال إلحاق شؤون العبادة بإدارة الاحتلال و تحويل المساجد إلى كنائس و متاحف ونفي و إبعاد الأئمة و الدعاة و إخضاع القضاء الإسلامي إلى القانون الفرنسي و غير ذلك من الوسائل المختلفة التي اعتمدها الاستعمار في قمع الدين الإسلامي.وهو في قمعه السافر هذا يدرك تمام الإدراك أثر محو العقيدة من نفوس الناس ففي محوها هدم لهوية المجتمع و تدمير لإحدى ركائز و ثوابت وجوده،وضمن هذا السياق يرى مالك بن نبي " أن الثقافة الحقيقية في وظيفتها الاجتماعية تقوم على مبدأ التبادل في الإرغام الاجتماعي و الموقف الفردي للفرد و هو مبدأ أخلاقي مستوحى من القرآن و السنة" [13].

إن ما يذهب إليه مالك بن نبي يؤكد العلاقة الوثيقة بين الدين و الهوية الثقافية ، فالإسلام كشريعة هو مصدر مختلف القيم و المفاهيم و الآداب و السلوكات التي يؤمن بها المجتمع الجزائري و هي راسخة في لاشعوره تكرسها حياته اليومية ،أي أن الثقافة الاجتماعية مستمدة في أصولها من قيم هذه الشريعة، و إذا انطلقنا من وجهة نظر علماء الاجتماع أمكن القول معهم أن شخصية الفرد ليست سوى منتوجا اجتماعيا ،ليكون سلوك الفرد ترجمة لقيم و مفاهيم الجماعة التي ينتمي إليها و هذا يعني أن سلوك الفرد في المجتمع الجزائري ينبثق أساسا من القيم الاجتماعية و المستمدة من الدين الإسلامي.لكن إذا اتفقنا على أن اللغة و الدين هما من الثوابت التي لا خلاف حولها في تغذية الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري ، فانه في المقابل ثمة روافد أخرى لهذه الهوية أسهمت في تشكيلها و تبلورها على النحو الذي هي عليه .فغني عن البيان أن المجتمع الجزائري يتكون من فسيفساء قبلية فهناك القبائل العربية و الأمازيغية بكل تفرعاتها من الشاوية و التارقية إضافة إلى قبائل بني مزاب و غيرها، إلا أن ماتجدر الإشارة إليه هو أن هذا التنوع تنوع متجانس إلى حد كبير و هذه ميزة قلما نجدها لدى مجتمعات أخرى، وكثيرا ما ترتبط هذه الظاهرة بنشوب الصراعات و التناحر المستمر ومحاولة الهيمنة و الإخضاع ولعل أهم عامل في تلافي هذه الصراعات هو دور الدين في تحقين التلائم و الانسجام و هذه حقيقة هامة يشهد لها التاريخ و الحاضر." فالقبائلية و الشاوية و المزابية و التارقية ليست ثقافات منغلقة و معيقة للتحديث و الوحدة و التحول ،بل هي من المكونات الأساسية للهوية الوطنية و لايحق لأي جهة احتكارها...."[14].كما أن تعدد

اللهجات الذي انبثق عن هذا المزيج الاجتماعي الهائل لم يشكل عائقا في الوحدة الثقافية،فالمجتمع الجزائري يملك مرونة كبيرة في التواصل بين أفراده.

إن استقراء ملامح الهوية الثقافية الجزائرية يكشف مدى كثرة و غزارة الوشائج المختلفة المكونة لها،إذ أن هناك مرجيات أخرى – علاوة على ماذكر- لها فعلها الواضح في تشكل هذه الهوية و من بينها الثقافة الشعبية و ما تحويه من بنى مختلفة كالعادات و التقاليد والآداب السلوكية والأساطير و الخرافات المتداولة في سياق الحياة الاجتماعية ، وأيا كانت درجة هذه الثقافة فهي في النهاية بنية لاشعورية رسخت بفعل الزمن في الذات الاجتماعية وانعكست كثقافة في السلوك الفردي و الجماعي ، وبذلك أصبحت موجهة للفكر بل أضحت تمارس الضغط الاجتماعي على أفراد المجتمع فتحدد لهم ما ينبغي أن يكون و حتى المواقف التي يجب اتخاذها إزاء الواقع و الحياة.إن التنشئة الاجتماعية بما تمليه من قيم و مفاهيم تزرع في كيان الأفراد مبادئ تشكل نظرتهم إلى الحياة و الوجود وتظل هذه المبادئ متحكمة في تفكير الفرد زمنا طويلا ، فيتشكل جانب كبير من هويته الثقافية .لكن أليس ثمة واقع جديد يلقي بثقله على هويتنا؟أليست الهوية اليوم تعاني من خطر أكبر حجما و أشد حدة و فتكا؟ هذا الخطر الذي تواجهة هويتنا يدخل بيتنا دون استئذان ويتمثل ذلك في خطر العولمة هذا الاستعمار الحديث الذي يلبس زي التقدم و التطوير لكنه يخفي تحت جوانبه أسلحة تدمير لكل هوية ثقافية قومية.

2) تحديات الهوية الثقافية:

تقول راضية الشرعبي:"إنَّ العولمة في شكلها الثقافي تهدف إلى إزالة الحدود الدينية والعادات والتقاليد، حتى تكون العقول المستقبلة للمادة الثقافية أكثر انفتاحا وتقبلا لما يأتي من الخارج، دون تفكير أو إعادة نظر بعد أن حطمت كل بوابات المراقبة والنقد، يقوم النظام العالمي الجديد في مشروعه المعولم لكل شيء على اختراق الثقافات الوطنية والثوابت الذاتية، ويعمل على طمس معالم الذات والأصل و الشرع، بطرح بدائل هجينة منمقة ومزوقة، بحيث تجلب الأنظار ومن ثمة القلوب والعقول"[15]. ويقول برهان غليون في ذات السياق: أن ثقافة الاختراق التي تمثلها العولمة تهدف إلى" اختراق البنية الثقافية المحلية، وتفاقم مخاطر الاستلاب والغزو والاستعمار الثقافي، بما يؤدي إلى محو الهوية الحضارية الثقافية للأمة المسلمة، ونزع الخصوصية الشخصية للشعوب المسلمة (التي تتمثل في:الدين واللغة والتاريخ والعادات والتقاليد والأخلاق)" [16]،إن ما أوردته الباحثة راضية الشرعبي و المفكر برهان غليون يضعنا أمام حقيقة ما يفرضه الواقع من معطيات فالعولمة ظاهرة تكتسح واقعنا وثقافتنا و حياتنا برمتها لتصبح بشكل أو بآخر مرجعية قسرية مهيمنة تتدخل بشكل مباشر أو غير مباشر في تحديد الكثير من معالم هويتنا الثقافية.فهي تغزوا العقول و تحدد الاتجاهات و الأفكار و المواقف كيف لا و هي تمتد إلى عقول الأطفال عبر وسائلها الإعلامية المختلفة كأفلام الكرتون وعن طريق الألعاب 'إنها تمسك بالخيوط الأولى لتشكل شخصية الطفل فتصوغها على النحو الذي أرادت فينشأ الميل

إلى العنف و التدمير ورفض السلطة الأبوية و التنكر للجماعة إلى غير ذلك من التداعيات السلبية للعولمة الثقافية على شخصية الفرد.

إن الهوية الثقافية الجزائرية لم تتأثر سلبا على تعدد مرجعياتها إلا أن هذه الهوية لا تحيا بمعزل عن متغيرات العالم و ما يتعرض له من أزمات فالثقافة الجزائرية جزء من الثقافة العربية الإسلامية ، بل جزء من الثقافة العالمية على الرغم من تمتعها بنصيب من الخصوصية الذاتية ،في عصر تلاشت فيه الحدود بين الثقافات و انصهرت في بوتقة واحدة حيث أصبح العالم قرية كونية صغيرة.ولا نجانب الصواب عندما نقول أن الهوية الثقافية الجزائرية أصبحت أمام تحد كبير يتمثل في البحث عن سبل تحصين نفسها من أثار تيار العولمة الثقافية الجارف، بل إنها أمست أمام عنصر جديد و دخيل يأبى إلا أن يضيف نفسه كمرجعية من بين المرجيات التي تحدد هذه الهوية ولكنها مرجعية قسرية تسعى إلى نسف كل المرجعيات الأخرى لتتفرد وحدها في صناعة نموذجها الغربي .

خاتمة:

ما نخلص إليه من هذه المقاربة النظرية لمسالة الهوية الثقافية الجزائرية بين تعدد مرجعياتها ورهانات الواقع المعاصر و ما يفرضه من معطيات ذات تأثير جلي على الفكر الفردي و الجماعي و لعل أبرز ما يظهر فيه هذا الواقع هيمنة ثقافة العولمة و يمكن القول أن تعدد و تنوع الخلفيات الثقافية لم يكن عائقا أو حاجزا أمام تماسك هوية المجتمع الجزائري وثباتها،بل وأثبتت الوقائع في الماضي و الحاضر إن هذا التعدد خلق مناخا واسعا للتلاقح والتبادل الفكري و الثقافي، كما غذى هذا التعدد الهوية وأثراها، وخلق بينها نوعا من التجانس، ولعل تعليل ذلك واضح هو أن للمرجعية الدينية أثرها الواضح في جعل هذا التنوع علامة ايجابية و صحية للهوية الثقافية، فقد انصهرت هذه الفسيفساء الثقافية في بوتقة الدين،واحتواها ضمن وحدة عناصرها،غير أن الرهان الحقيقي الذي يفرض على المثقف الجزائري أن يلعب دوره في رفع لوائه،والذي يتمثل في ثقافة الاستعمار الفكري الجديد الذي يتزعمه رواد العولمة ويستخدمون فيه كل الوسائل المشروعة و غير المشروعة بهدف القضاء على الخصوصية الثقافية القومية ، وتنصيب مرجعية غربية تحل محل مرجعيات الثقافات القومية .إن الهوية الثقافية الجزائرية في حاجة إلى إعادة ترتيب رفوف العناصر الماضوية التي علقت بشكل عشوائي و مبتور بها جراء الاستعمار و مشاريعه التدميرية فحتى و إن كنا نشعر بثبات هويتنا إلا أنا واقعنا أيضا لا يزال مشوبا بإختلالات عديدة على مستوى اللغة و التفكير فلا يزال حضور الاستعمار الفرنسي فاعلا في اللسان و التفكير.

هوامش البحث :

-(1) مجلة الرسالة عدد 233 حياة الأمة العربية بين الماضي والمستقبل، على الموقع: ar.wikisours.org

- (2) أ.محمد الميلي/ الجذور الثقافية والفكرية لثورة نوفمبر المجيدة.صحيفة المجاهد الأسبوعي/العدد2303 من 20 - 27 /9/ 2001

- (3)جورج لامارين ، والاديولولوجيا و الهوية الثقافية:الحداثة و حضور العالم الثالث،ترجمة فريال حسن خليفة،مكتبة مدبولي القاهرة،ط1 ،2002،ص 246.

-(4) مصطفى حدية،التنشئة الاجتماعية و الهوية،كلية الآداب ،الرباط ، المغرب،ط1،1996،ص 25.
- (5)د.محمد عابد الجابري/نحن والتراث . المركز الثقافي العربي / بيروت .الطبعة السادسة 1993 ص: 22.
-(6) أبو الفضل جمال الدين ابن منظور. لسان العرب، ج، 03، مادة: رَجَعَ ، دار المعارف، ص 1095.
-(7) رياض عثمان.تداخل المرجعيات من النحويين و البلاغيين و المفسرين (دراسة تأصيلية لنقد المنهج المرجعي) المرجعيات في النقد والادب و اللغة،مؤتمر النقد الدولي الثالث عشر،عالم الكتاب الحديث،اربد [الاردن]،مج 1، مج2 ،ط،2010،01،
- (8) ولد حرمة عبد السلام، الهوية و الثقافة،مقال نشر في الموقع www gotariding com
-(9) ـ فاروق خورشيد /الموروث الشعبي ص :12 ط1 /1992 دار الشروق .بيروت
-(10) مسعد جوزيف، القومية العربية،كولومبيا جامعة كولومبيا،2001 ،ص18.
-(11) مشكلة العروبة في الجزائر، محاضرة للشيخ البشير الإبراهيمي في ندوة الأصفياء ، ص: 204، دار مصر للطباعة ، عام 1955م.
- (12)
-(13) عماد عبد الطيف،صفحات مشرقة من فكرمالك بن نبي،در الشهاب للنشر و التوزيع،باتنة ،الجزائر،1984،ص 110.
-(14) عربي علي ،الباحث الاجتماعي،الهوية و اشكالية الخصوصية الثقافية،مجلة دورية تصدر عن معهد علم الاجتماع ،جامعة منتوري،عدد2،السنة 21999،ص:93.
- (15) الإعلام العربي وتحديات العولمة الثقافية:
- (16) برهان ، غليون : رهانات العولمة ، سلسلة مقالات نشرت في جريدة الاتحاد الظبيانية عام 1991م، الإسلام في عصر العولمة: ، ص: 16.